القسم الثالث

ومعظمه ذكريات

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا
نحن الضيوف وأنت رب المنزل

بهذا البيت من الشعر استقبلني ابن سعود عندما زرته لأول مرة في الهفوف سنة ١٩٢٠ .

الفصل الرابع عشر

الكويت

١٩٣١ - ١٩٣٦

جريمة لها ما يبررها

اهتز العراق سنة ١٩٣١ لمقتل حاكم بغداد المحبوب عبدالله بن أحمد باشا السنا (١) في مكتبه بالبلاط على يـد عبدالله بك الفالح باشا السعدون الشيخ الأعلى في المنتفق. لقد كنت أعرف الرجلين جيداً مع أنني لم أرَ لهما وجهاً منذ عدة سنوات.

(١) الصانع

عرفت عبدالله بك عندما استسلم لي في كانون الثاني سنة ١٩١٩ عندمـا سمح له أن يعود للإقامة في ممتلكاته في كثيبان على بعد عدة أميـال من البصرة حيث عاش بهدوء دون أن يشترك في السياسة ، ولم يكن يقصد بغداد إلا لزيارة الملك فيصل أو لحضور جلسات المحكمة المتعلقة بقضايا حول أملاكه الكثيرة . وقـد قابلته في إحدى تلك المناسبات فوجدته نفس الرجل الهادىء المعتد بنفسه الذي قصدني تحت جنح الظلام في الناصريه وتوسل إليّ ان أتوسط بشأنـه لدى السير بيرسي كوكس .

أمـا عبدالله السنا فقد كانت معرفتي بـه أكثر وثوقاً . فهو ابن أحمد باشا متصرف البصره أيام الحكم البريطاني وقـد عمل تحت امرتي كقائمقام على الحلة .

وعندما غادرت العراق الى الهند علمت انه شق طريقه بجدارة واستحقاق وترقى خطوة خطوة الى أن أصبح حاكم بغداد وحاز على ثقـة الملك فيصل الى أقصى الحدود . وقد كنت فخوراً بذلك لأن بعض الفضل في ارتقـاء الرجل يعود الى التدريب الذي لقيه على يدي في اوائل عهده .

ثم كانت غلطة عبدالله السنا الذي كان يتوق لطلب يـد ابنة رئيس وزراء العراق الراحل عبد المحسن السعدون . فبعد انتحار عبد المحسن في سنة ١٩٢٩ ذهبت الفتاة لتعيش مع والدتها في سورية . امـا عبدالله السنا ، كما يستدل من اسمه وكما يعرف الجميع ، فقد كان من أصل متواضع . ولم يصل الى ما وصل إليه إلا بطموحه واجتهاده وقدرته ورضا الملك فيصل عليه . ومجرد تفكير هذا الرجل في الزواج من إحدى سيدات آل السعدون نخبة النخبة في الارستقراطية القبلية العربية ، كان جريمة ، ان لم نقل عملاً جنونياً صرفاً .

ان لعائلة السنا مكانة وضيعة في سلم الدرجات الاجتماعية عنـد البدو بحيث ان اية قبيلة شريفة في طول الجزيرة وعرضها لا تحلم بتزويج احدى بناتهـا الى واحد من عائلة السنا التي صنفت منذ أقدم الأزمان بانها وضيعة المولد لكون اعضائها يعملون كاسكافيين وحدادين ، وينظر اليهم بأنهم خدام عند القبائـل . ان خرق هذه القاعدة يعني الموت للرجـل وللفتاة ولا يمكن ان تكون هناك أسباب أو ظروف تخفيفية .

ولسنا نعرف ما اذا كان عبدالله السنا يعتقد ان مركزه أصبح قوياً وان بغداد أصبحت متمدنة الى حد دفعه الى تحدي العادات والقواعـد القبلية . ويكفي القول انه خطب ود الفتاة وطلب موافقة الملك على الزواج . ويقال ان فيصل بارك الزواج رغبة منه في مكافأة صديقه ، ويقول بعضهم – خطأ على ما اظن – ان القضية كانت سياسية وتستهدف عن قصد تحقير اسم آل السعدون في العالم العربي . ففيصل لم يكن على علاقـة طيبة معهم وكان يكره ادعاءاتهم المتطاولة بانهم في مستواه ويعادلونه منزلة ، وكانت تغيظه تحدياتهم الصريحـة له في كل المناسبات .

والشيء الوحيد المؤكد هو ان الملك فيصل الذي ينحدر من أعرق عائلات الحجاز والذي شب وترعرع في محيط قبلي ، كان يعرف مدى خطورة رد الفعل الذي سيحدثه هذا الزواج لا سيا في أوساط عائلة السعدون، ومع ذلك لم يمنعه. ويبدو ان البريطانيين في بغداد لم يقدروا الموقف لأنهم دائماً يفكرون ببلادهم وبمكافأة المستحق، لذلك تمنوا لعبدالله السنا حظاً سعيداً وهنأوه على حسن اختياره.

ولما لمس عبدالله السنا تشجيعاً من الملك لم يتوان لحظة واحدة بل احاط بوالدة الفتاة بنجاح وهي سيدة تركية الأصل ظنت ان موافقة الملك ضمانة كافية لسلامة ابنتها . ولما كانت تعيش في بلاد متمدنة كسورية ظنت ان العادات والاحقاد القبلية قد انقضت .

وما ان وصلت الانباء الى البصره ، معقل آل السعدون ، حتى بلغ الغيظ والرعب ذروته . وفي الحال أرسلت بعثة الى بغداد لتطلب من الملك ان يفسخ الخطبة ويمنع الزواج . وبالرغم من كل اسبابهم وحججهم فقد فشلوا في مهمتهم . وأرسلت بعثة ثانية الى الملك برئاسة ثامر بك السعدون وضاري بك الفهد السعدون وغيرهما . ويقال ان كلمات كبيرة وعادية استخدمت اثناء المقابلة . والكلام الذي وصلنا الى الكويت يفيد ان البعثة أبلغت الملك انه اذا تم الزواج فسيقتل العروسان ويتعرض الملك نفسه الى نفس المصير . وقالوا له ان آل السعدون ينحدرون من عائلة توازي عائلته مكانة، وعيروه لأنه استخدم مركزه لفرض زواج يعرف تماماً انه يلحق العار ببيتهم .

لقد استقبل الملك البعثتين بصورة سرية ومن المفروض ان لا يعلم العالم الخارجي شيئاً عما دار في الاجتماع ، ولكن الوقائع تسربت بطريقة من الطرق. ويقال أيضاً ان الملك حنق لأن مجموعة من رعاياه تحدثه وهددته في قصره . وقد اتهمهم بدوره بتحدي السلطة والتطاول عليها ورفض ان ينظر فيما يسعون اليه بصورة من الصور .

اما عبدالله بك الفالح باشا السعدون فلم يذهب مع البعثة وبقي في البصره بانتظار التطورات . وقد تلقى انباء الفشل الثاني بأسى واشمئزاز . والآن أصبح

شرف العائلة في خطر والحياة لا تساوي شيئاً في مثل هذه الحالة . وقبل ان يقرر اتخاذ أي اجراء قضى عدة أيام في مدينة البصره .

بعد ذلك ظهر عجيمي بك السعدون على المسرح . فقد اتى على جناح السرعة الى البصره قادماً من ماردين في تركيا تلبية لإلحاح عائلته . وقد اجتمع فور وصوله بشقيقه سعود بك الذي جاء من الناصريه وبعبدالله بك وقرروا وجوب القيام بعمل فوري حاسم . وفي جلسة سرية تقرر ان يتوجه عبدالله بك وسعود بك كل على حدة الى بغداد لقتل عبدالله السنا .

وقيل أيضاً ان أنباء وصلت الى البصره تفيد ان العقد قد تم نيابة عن أهل العروس التي كانت تجهز نفسها للسفر الى سورية لا كمال العقد هناك . ولكن ذلك يصعب تصديقه . اما الذي حدث فعلاً وعجل في وقوع المأساة فهو حادث عائلي . فقد عاد عبدالله بك السعدون الى منزله في كتيبان ذات يوم ونادى زوجته باعلى صوته لدى دخوله المنزل . ولم تظهر زوجته من غرفتها بل سألت عن المنادي من وراء القاطع . ورد عليها غاضباً :

– انا عبدالله زوجك .. لماذا لا تأتين ؟

واجابته على الفور :

– انا الآن لست زوجتك ، ولن أكون إلا اذ قتلت السنا الذي تجرأ وطلب يد واحدة من بناتنا .

وبدون ان ينبس ببنت شفة أخذ عبدالله بك مسدسه وغادر المنزل لوحده وتوجه بالسيارة الى بغداد حيث توجه فوراً الى البلاط وطلب مقابلة الحاكم . وأدخل الى مكتب عبدالله السنا الذي استقبله بأدب وترحاب وسأله عن سبب تشريفه له بهذه الزيارة؟ . ورفض عبدالله بك ان يشرب القهوة التي قدمت له وقال لعبدالله السنا – حسب رواية الفراش الذي قدم لهما القهوة – ، انه في الوقت الذي لا يشعر نحوه بأية عداوة شخصية ، إلا انه يرى من واجبه منع زواجه المقترح من فتاة من قبيلته . ثم شهر مسدسه واطلق النار على السنا عبر المنضدة فسقط الى الارض مضرجاً بدمه . وعاد عبدالله بك فأفرغ بقية

الرصاصات في الرأس السنا بصورة متعمدة . وبعد ذلك فتح الباب وطلب من الفراش ان يستدعي البوليس الذين وجدوه لدى وصولهم جالساً على المقعد يدخن سيجارة . فشرح لهم بهدوء الاسباب التي دفعته الى ارتكاب جريمته .

ان محاكمة عبدالله بك برئاسة قاض بريطاني ، حركت العالم العربي الى اعماقه . وعندما صدر حكم الاعدام بحقه كان رد الفعل لصالح القاتل شديداً بحيث ان برقيات قوية اللهجة وصلت الى الملك فيصل من شخصيات مرموقة كابن سعود وحكام الكويت والبحرين وعمان واليمن ، ومن رهط من الامراء والشيوخ في اواسط الجزيرة العربية والحجاز والعراق واماكن أخرى ، تطالبه بتخفيض الحكم . وبالفعل ابدل الملك فيصل الحكم بالاعدام الى السجن العادي ٣٠ سنة ثم عاد الملك فيصل بقرار استرحام فخفض الحكم الى سنة واحدة .

وصدف ان كنت في البصرة عندما اطلق سراح عبدالله بك وعاد الى تلك المدينة . ولم اشاهد في حياتي استقبالاً لرجل شرقي كالاستقبال الذي جرى له . فقد تجمهر آلاف الاشخاص على المحطة وآلاف غيرهم اصطفوا في شوارع البصرة والعشار . ولكي يصدق المرء ذلك يجب ان يشاهده . فالجماهير لم تكن تستقبل مجرماً عادياً بل بطلاً وطنياً .

وأعترف انني اخطأت في شق طريقي بين الجماهير في الاستقبال الحافل الذي تلا ذلك لأقدم تهاني لعبدالله بك لخروجه من السجن . وبعد هذا وذاك ، فهو رجل شجاع وفعل ما كان يظنه صحيحاً حسب القواعد التي شب عليها .

القبور التسعة

وهذه قصة أخرى عن الأحقاد القبلية .

في نهاية يوم طويل من الصيد على طول سلسلة الظهر في الكويت سنة ١٩٣١ عدت وزوجتي الى المخيم عند حلول الظلام وقد انهكنا التعب . وفي الصباح أمرت ان تضرب خيمتنا وخيام مرافقينا سالم المزين وعائلته في مكان اعد لنا كنت قد اخترته بصورة عفوية- وهو مكان جميل في الطرف الاسفل من المنحدر